المراثي والفخر فيه « ذلك أن الفخر هو مدحُك نفسَك بالطهارة والعفاف والحِلْم والعِلم والحَسَب ، وما يجري مجرى ذلك . والمرثية مديح الميت ، والفرق بينها وبين المديح ، أن تقول : كان كذا وكذا ، وتقول في المديح : هو كذا ، وأنت كذا .» [١]

والفارق بين المديح والفخر والرثاء إنما يتمثل في الناحية التركيبية ، واختيار الأداة التعبيرية فحسب ، فإذا أردت ذِكْرَ الميت بالجود والشجاعة ، تقول : مات الجودُ ، وهلكت الشَّجاعة . ولا تقول : كان فلان جَواداً وشجاعاً ؛ فإن ذلك باردٌ غير مُستَحْسَن [٢] .

وجزئيات الدلالة في المديح تقوم – عند قدامة – على فضائل أربع ، هي : العقل والشجاعة ، والعَدْل والعفَّة ، وهذه الصفات النفسية هي مدار حركة الدلالة في المديح ، باعتباره منصبا على وصف الرجال من حيث هم بشر ، وذلك يقتضي وجود ما يميزهم من سائر الحيوان [٣] .

وبهذا يكون المصيبُ مِنَ الشعراء مَنْ مَدَحَ الرجال بهذه الخِلال لا بغيرها ، والأكثر إصابة من استوعبها ولم يقتصر على بعضها ، وذلك كما قال زهير بن أبي سُلْمى :

أخي ثِقَة لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المالَ نائِلُه

فوصفه بالعفة لقلَّة إمعانه في اللذات ، وأنه لا ينفد ماله فيها ، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال :

---

(١) أبو هلال : الصناعتين ، ص ١٢٦ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٦٥ ، ٦٦ .